

الحياة الاجتماعية لبكوات الممالك

في مصر في القرن الثامن عشر

المقدمة :

اهتم مؤرخو مصر العثمانية بالكتابة عن صراعات البيوتات المملوكية ونظم الحكم والإدارة، وعلاقتهم بالدولة العثمانية وبالمصريين ، وغيرها من الموضوعات، وأهملوا الكتابة في الحياة الاجتماعية لتلك الفئة التي جاءت إلى مصر من عناصر شتى في سن الطفولة، ونسيت ماضيها ومواطنها الأصلية، إلا فيما ندر، وكذلك نسيت ثقافتها وحضارتها المسيحية، واعتقت الإسلام، واندمجت في الحضارة العربية الإسلامية متأثرة بها ومؤثرة فيها، ونجحت في تكوين طبقة أرستقراطية حربية حاکمة بالرغم من قلة عددها بالنسبة إلى شعب مصر. هذه التجربة التاريخية الفريدة لفئة الممالك تستحق منا التأمل والدراسة في حياتها الاجتماعية.

دخلت مصر في حوزة الحكم العثماني في عام ١٥١٧م، واستتبع ذلك وضع نظام جديد للحكم في مصر. تمثل في إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كل منهما الأخرى. الأولى سلطة نائب السلطان (والي)، والثانية سلطة الديوان المكون من رؤساء

الدكتورة :
مرفت أسعد
عطا الله *

* ليسانس في
الآداب من قسم
التاريخ والآثار
المصرية
والإسلامية -
كلية الآداب -
جامعة الإسكندرية،
١٩٩٢م.
- ماجستير في
الآداب من
الجامعة نفسها
عام ٢٠٠٠م.
- دكتورة في الآداب
من الجامعة نفسها
عام ٢٠٠٣م.
- تعمل الآن مدرس
التاريخ الحديث
والمعاصر المساعد
بقسم العلوم
الاجتماعية بكلية
التربية - جامعة
الإسكندرية.

الدراسة

السنة الحادية عشرة

العددان : الثاني والثالث والأربعون

جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٩هـ

يونيو - سبتمبر ٢٠٠٨م

الحامية العثمانية، وإلى جانبهما سلطة الممالك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاماً للمديريات في مصر نظراً لخبرتهم السابقة في الحكم . وهم بقايا الدولتين اللتين آل إليهما الحكم في مصر على التعاقب مئتين وسبع وستين سنة.

الأولى: هى دولة الممالك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها، وكان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٠٦ - ١٢٤٩م) أحد سلاطين الدولة الأيوبية (١١٧١ - ١٢٥٠م) قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جندة وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل، وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ولذلك سمي هؤلاء بالممالك البحرية.

والثانية: هى دولة الممالك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧م)، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية أن المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) أحد سلاطين الممالك البحرية عهد إليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم في الأبراج فسموا البرجية ويسميهـم بعض المؤرخين بالشراكسة نسبة إلى أصلهم.

لم يستمر نظام الحكم كما وضعت قواعده منذ دخول العثمانيين مصر، ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر دب النزاع بين الولاة ورؤساء الحامية العثمانية، فانتـهـز الممالك فرصة التنازع بين الفريقين وأخذوا يعملون على استعادة نفوذهم و الانفراد بالحكم. وضعفت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ الممالك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للسلاطين البحرية والشراكسة، في ظل السيادة العثمانية الاسمية.

أصبح بكوات^(١) الممالك في القرن الثامن عشر أرسـتقراطية عسكرية حاكمة،

(١) بك: تعني كبيراً أو ثرياً، واستخدمت البكوية في مصر العثمانية كرتبة لأمرء الممالك الصناجق وهم أمراء محافظون لولايات مصر . انظر: ليلي عبد اللطيف . الإدارة في مصر في العصر العثماني - مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٨م ، ص ٤٤١ ، ٤٥٠ .

فتركزت السلطة المدنية والعسكرية في أيديهم. وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد^(١)، وله نفوذ واسع، فصارت مشيخة البلد بمثابة إمارة مصر. أما المنصب الثاني فهو منصب أمير الحج^(٢)، والشخصية الثالثة في الحكومة هو الدفتردار^(٣)، وبعد هذه المناصب العليا يأتي البكوات حكام الأقاليم^(٤).

عرفت مصر أجناساً كثيرة من المماليك منهم: اليوناني والجركسي والتركي والأرنبودي والنمساوي والمجري والكرواتي.

ومن الأوربيين الذين خدموا أمراء المماليك الإيطالي فيسنزو تابيرنا Taberna مملوك علي بك بلوط قبان^(٥) Bulut Kapan (ت صفر ١٨٧ هـ/ مايو ١٧٧٣م)

(١) شيخ البلد: كبير الأمراء المماليك وهو منصبٌ استحدث في القرن الثامن عشر وكان شيخ البلد الشخص الثاني في الأهمية بعد الوالي . انظر: ليلى عبد اللطيف. المرجع السابق، ص ٤٤٩. وعمر عبد العزيز عمر. دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩٥٢م) -٠ دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢م ، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) أمير الحج: هو البك المختص بالإشراف على سفر الحجاج والعودة بهم، وتأمين طريقهم وأرواحهم وأموالهم، وتوصيل الصرة (المال الذي كان يرسل سنوياً من مصر لأهالي مكة والمدينة) إلى الحرمين الشريفين. انظر: ليلى عبد اللطيف. مرجع سابق، ص ٤٣٩، ٤٤٩.

(٣) الدفتردار: هو الشخص المسؤول عن الديوان الذي له الإشراف العام على مالية مصر. انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي. عجائب الآثار في التراجم والأخبار؛ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الأول -٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م ، ص ٤١، هامش ١.

(٤) ج. دي شابرول. دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين"، موسوعة وصف مصر؛ ترجمة زهير الشايب، الجزء الأول -٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م ، ص ١٨٦.

(٥) بلوط قبان: لقب تركي لقب به علي بك ويعني صائد المشبوهين The Cloud Catcher انظر: Holt,P.M.,Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922,A Political History,(Cornell University press,Ithaca and London,1980),p.93

والذي كان وكيلاً له ، ويجيد العربية والتركية. وهناك الكولونيل الإيطالي ألتامار Altamare وهو واحد من الضباط الرئيسيين لمراد بك (ت ذي الحجة ١٢١٥هـ / أبريل ١٨٠١م)، والذي أصبح مدرباً في جيش محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨م) في الفترة من ١٨١٠ إلى ١٨١٢م. وأيضاً اليوناني باثليمي سيرا Barthelemy Serra والذي كان رئيساً للمدفعية في بيت محمد بك الألفي (ت ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م)، وقد كان خيلاً عظيماً، يعرف اليونانية والإيطالية والعربية والتركية، وقد لقبه المصريون "فرط الرمان" وهي تورية لبارثليميو الرومي^(١). هذا وقد وردت إشارات لأعداد كبيرة من الروس في البيوتات المملوكية، منها تقرير المدفعجي الإنجليزي روبنسون Robinson - أحد مستخدمي محمد بك أبي الذهب (ت ربيع الآخر ١١٨٩هـ / يونيه ١٧٧٥م) - حيث ذكر أنه عند وفاة محمد بك في أثناء حملته على سوريا، اقتحم ٢٥٠ مملوكاً من أصل روسي خيمته واستولوا على بعض من كنوزه وتركوا المعسكر^(٢). كذلك عرفت مصر مماليك من أديان مختلفة فمنهم المسيحي، واليهودي مثل الأمير يوسف بك المسلماني (ت ١١٢٠هـ / مارس ١٧٠٨ - مارس ١٧٠٩م) وأصله يهودي ثم أسلم. وكان من أمراء المماليك من ليس من اللون الأبيض إطلاقاً كإبراهيم كتخدا السناري (ت ١٢١٦هـ / مايو ١٨٠١ - مايو ١٨٠٢م) وأصله من دنقلة^(٣).

(١) Crecelius, Daniel, "The Mamluk Beylicate of Egypt in the last decades before its destruction by Muhammad Ali Pasha in 1811", The Mamluks in Egyptian politics and society, edited by: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, (Cambridge university press, 1998) pp. 143-144

(٢) Ibid, pp. 138-139

(٣) محمود الشرقاوي. مصرفي القرن الثامن عشر، ج ٢ - ط ٢ - القاهرة : مكتبة الأنجلو،

١٩٥٦م ، ص ١٦.

وقد كان بعض المماليك، في سن المراهقة، حين انضموا إلى البيوتات المملوكية في مصر. وهذا يعني أنهم كانوا يدركون تماماً من أين جُلبوا، كما كانوا يتذكرون من هم أقاربهم. وقد أبقى الكثير من بكوات المماليك على مراسلة عائلاتهم، فدعوا آباءهم وأخواتهم وإخوتهم ليقاسموهم حظهم السعيد في مصر، بل وعينوا إخوتهم وأقاربهم الذكور في مناصب مهمة. فعلى سبيل المثال جُلب علي بك إلى مصر وهو في سن الثالثة عشرة، وقد أرسل في إحضار والده- وهو قس أرثوذكسي يوناني- وأخته إلى القاهرة، بل وعين ابن أخته ويدعى رضوان في منصب البكوية^(١).

أما عن أعداد المماليك في مصر في القرن الثامن عشر فقد اختلفت فيها الآراء وإن كانت تلك الاختلافات طفيفة فيما بينها، وعلى أية حال قدر الرحالة فولني Volney عدد بكوات المماليك في عام ١٧٥٧م بأربعة وعشرين^(٢)، وقُدِّر عدد المقاتلة من المماليك عند مجيئ الحملة الفرنسية ١٧٩٨م بين تسعة وعشرة آلاف^(٣). وقد قدر علماء الحملة سكان مصر ٢,٥ مليون نسمة^(٤)، أي أن نسبة المحاربين من المماليك في المجتمع المصري حوالي ٤,٠٪ وهذا بخلاف النساء والأطفال.

(١) Crecelius, op.cit., p.134

(٢) س. ف. فولني. ثلاثة أعوام في مصر وبعث الشام: نقلها إلى العربية إدوارد البستاني، الجزء الأول - ٣ ط - بيروت، ١٩٤٩م، ص ٨٢.

وقد زار الرحالة الفرنسي فولني مصر في أوائل العقد الثامن من القرن الثامن عشر. انظر: إلهام محمد علي ذهني. مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ٧١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج ١ - ٦ ط - القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م، ص ٥٩.

(٤) وصف مصر، ج ١، ص ١٩.

لا يحمل البكوات أسماء عائلات، بل مجرد اسم صغير: علي، أو إبراهيم، أو عبدالله. ومع ذلك فعادة ما يكون هذا الاسم الصغير مسبقاً أو متبوعاً بلقب أو اسم ثان. فكان محمد بك يلقب بأبي الذهب؛ لأنه في اليوم الذي حصل فيه على لقب بك ذهب من قصره إلى القلعة ليلبس القفطان^(١) وراح ينثر الذهب بيديه طوال الطريق. وكان أمير الحج حسين بك (ت ١٨٢ هـ / مايو ١٧٦٨ - مايو ١٧٦٩ م) يلقب كشكش وهو لفظ يدل على المحبة والود في اللهجة المصرية. ومن البكوات من دل لقبه على موطنه الأصلي مثل قاسم بك الموسقو (ت ١٢١٥ هـ / مايو ١٨٠٠ - مايو ١٨٠١ م)^(٢). أما محمد بك (ت ١٢٢١ هـ / ١٨٠٧ م) فللقب بالألفي نظراً؛ لأن مراد بك قد اشتراه بألف إردب من الغلال^(٣).

يعتبر المملوك عضواً من أعضاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده يشركه في تجارته ويزوجه من ابنته ويهيئ له حياة طيبة. أما أولئك الرقيق الذين يكونون في خدمة بكوات المماليك، فإن حظهم أكثر بريقاً، حيث إن سادتهم يولونهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعاً من التدريب العسكري ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك^(٤). فالسيد هو الذي يقرر أن مملوكه قد بلغ سن النضج، وأنه مستعد لتولي أحد المناصب، فيعتقه ويسمح له بأن يطلق لحيته^(٥).

(١) إيدانا بتولي مهام وظيفته.

(٢) Dehrain, Henri, "L'gypte Turque : Pachas et Memeluks du XVIe au XVIIIe sicle", L'expdition du Gnral Bonaparte", Gabriel Hanotaux, Histoire de la Nation gyp-tienne, (Paris, 1931), tome 5, p. 67

(٣) عجائب الآثار، ج ٧، ص ٤٧.

(٤) وصف مصر، ج ١، ص ٢٠٩.

(٥) فالوجه الأمر خاص بالعبيد والنساء. انظر: فولني، المصدر السابق، ص ٨٢.

وكان البك مسؤولاً عن ملابس، وتسليح وركوب مماليكه، وكان يتباهى بمظهرهم الجميل، وإذا ترك مماليكه يلبسون نفس الملابس لمدة سنتين متتاليتين، فإنه يسقط من نظرهم. ففي عام ١٧٩٤م طلب مراد بك من التجار الفرنسيين أقمشة من الجوخ، ولما كانوا يعرفون من تجاربهم معه أنه يتأخر في سداد الفواتير فقد تهربوا منه متذرعين بحجة أنه ليس لديهم ما يكفي من القماش، ولكن البك أصر بشدة وانطوى إصراره على التهديد فهو لا يريد أن يوصم بأنه لا يكسو مماليكه^(١).

وفي عام ١٢١٢هـ (يونيو ١٧٩٧ - يونيو ١٧٩٨م) نزل مراد بك إلى دمياط وجعل عليها قدراً من المال وألزم أهلها بدفعه، ولما رجع من دمياط وزع معظم ما جاء به من الأموال على مماليكه وأتباعه وخدمه^(٢).

وتتجلى قوة كل بك في عدد رجاله وفي شجاعتهم لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه، فممالك مراد بك وحده كانوا أربعمئة، وممالك إبراهيم بك (ت ١٢٣١هـ / يناير - فبراير ١٨١٦م) كانوا ستمئة، وقد أكثر علي بك من شرائهم حتى بلغ عددهم عنده ستة آلاف^(٣). وفي حديث مع علي بك مع تاجر بندقي قال: " هل لسلطين الفرنجة أولاد يضاھون بالثروة ابني محمد"^(٤).

ويقف العبد المدرك تماماً - أنه مملوك كلية لسيده - أمام سيده ويداه مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس أقل رغبات سيده حتى ينفذها قبل أن

(١) Dehrain , op. cit.p.75

(٢) إسماعيل بن سعد الخشاب . خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد ؛ حققه وترجمه وعلق عليه حمزة عبد العزيز بدر ودانيال كريسيليوس - العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م ، ص ٤١-٤٢.

(٣) محمود الشرقاوي. مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥.

(٤) يقصد هنا مملوكه السابق محمد بك أبا الذهب. انظر: فولني. المصدر السابق، ص ٨٩.

يعبر سيده عنها، ولا يستشعر مطلقاً الحاجة في قطع قيوده، بل إن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أي رجل حر قبوله، وقد رفع علي بك كثيراً من ممالكه إلى مراتب البكوات والكشاف^(١)، ومع ذلك فقد كانوا- عندما يأتون لزيارته- يظلون واقفين في مظهر خانع، ولا يجلسون مطلقاً أمامه إلا إذا دعاهم لذلك، كما كانوا يحرسون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التي يجلس عليها سيدهم القديم^(٢). وحتى إذا ما انقلب أحد الممالك على سيده السابق فإن هذا لا يلغي كلية احترام المملوك لسيده، فعندما التقى علي بك بمحمد بك أبي الذهب في منطقة الصالحية بشرق الدلتا (صفر ١١٧٨ هـ / أبريل ١٧٧٣ م) وتحارباً وكانت الهزيمة على علي بك وأصيب، فحملوه إلى مخيم محمد بك الذي "خرج إليه وتلقاه وقبل يده وحمله من تحت إبطه حتى أجلسه بصيوانه ... وحضروا إلى مصر وأنزل محمد بك أستاذه في منزله ... وأجرى عليه الأطباء لداواة جراحاته"^(٣).

سمات المجتمع المملوكي:

ارتباط الممالك بمصر:

كان الممالك يرون أنفسهم من أبناء مصر وأن هذا البلد هو وطنهم، ويتضح هذا الإحساس في تسمية المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٥ م) لهم "الأمرء المصرية"^(٤).

الحقيقة أن بكوات الممالك كانوا أقرب إلى المصريين في حياتهم وأعرف

(١) الكاشف: هو الموظف الذي يتولى إدارة كاشفية، وهي القسم الإداري الأقل من الولاية، وقد وُجد في مصر أربع وعشرون كاشفية. انظر: ليلي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص ٤٥٣.

(٢) وصف مصر، ج ١، ص ٢١٠-٢١١.

(٣) عجائب الآثار، ج ٢، ص ٥٩٠-٥٩١.

(٤) محمود الشرقاوي. المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٥.

بشؤونهم من السلطات الأخرى^(١). وكان أمراء المماليك دائماً يفضلون الإقامة في مصر على أن يقبلوا ترقية في أي مكان آخر، فمغادرة مصر بالنسبة لهم بمثابة الذهاب إلى المنفى. حتى في الآستانة كان البك المملوكي يشعر أنه مقتلع من جذوره ووحيد^(٢). وكان بعض كبار المماليك يخضع لعاطفة أنه مصري في تصرفاته وفي تفكيره، فمن هؤلاء من صمد في حرب نابليون Napoleon (١٧٦٩ - ١٨٢١م) حتى الموت مثل أيوب بك الدفتردار (ت صفر ١٢١٣هـ / يولييه ١٧٩٨م) فعندما وصل الفرنسيون حي إمبابة بالقاهرة خرج أيوب بك قبل الموقعة بيومين وصار يقول: "أنا بعت نفسي في سبيل الله" وقبل الموقعة توضأ وصلى ركعتين ثم ركب في مماليكه وحارب حتى قتل^(٣).

ومن ثم أجاد المماليك اللغتين التركية والعربية، وهذا ليس بالغريب فمعظمهم ولدوا في مصر، فضلاً عن أن صلتهم بالعلماء والمتصوفة حسنت من لغتهم بشكل كبير^(٤). فعلى سبيل المثال كان الأمير صالح بك أمير الحج (ت ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م) "فصيح اللسان يظن من يراه أنه من أولاد العرب لطلاقة لسانه وفصاحة كلامه"^(٥).

اشتهار المماليك بالفروسية :

كان من أبرز صفات المماليك الشجاعة والفروسية خاصة، فقد كانت لهم في

(١) محمود حلمي مصطفى. الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك من ١١٦٧هـ (١٧٥٣ - ١٧٥٤م) إلى ١٢٤٤هـ (١٨٢٥م) . عبد الرحمن الجبرتي. دراسات وبحوث؛ إشراف أحمد عزت عبد الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م ، ص ٢٩٤.

(٢) Winter, Michael, Egyptian society under Ottoman rule 1517- 1798, (London, New York: by Routledge, 1992) p.76

(٣) محمود الشرقاوي. المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦.

(٤) Winter, op. cit. , p.73-74

(٥) عجائب الآثار، ج ٥، ص ١١٣.

ركوب الخيل والحرب عليها براعة فائقة ومقدرة لا يدانيهم فيها أحد، وشهد لهم بذلك علماء الحملة الفرنسية حين اعتبروهم "الفرسان الأول في العالم"^(١). أما فولني فقال: "أنك لا تراهم في المدينة، أو الحقل، أو أثناء التزاور، حتى من باب إلى باب إلا على ظهور الخيل"، كما ذكر أن تدريبهم على استخدام الأسلحة هو شغلهم الشاغل طوال الحياة، حيث يخرج معظمهم صبيحة كل يوم إلى سهل حيال القاهرة، وهناك يطلقون أعنة الجياد ويتدربون، وسط تشجيع البكوات الحاضرين^(٢). ويذكر الجبرتي عن الأمير عثمان ذي الفقار (ت ١١٩٠ هـ / فبراير ١٧٧٦ - فبراير ١٧٧٧ م) أنه في "أواخر أيامه أقعد، ولم يقدر على النهوض، فكانوا يحملونه لركوب الحصان، فإذا استوى راكباً صار أقوى من الشاب الصحيح، ورمح وصفح وسابق"^(٣).

الاهتمام بأعمال البر وإنشاء المؤسسات الدينية:

إذا ذكر المماليك تبادرت إلى أذهان الناس صفات القسوة، والعدو والجبروت، والجهل. وإذا ذكرت أيامهم، وحكمهم، اقترن بها ذكر الظلم، والاستبداد، والفوضى، والشر. فقال عنهم فولني: "ملكك فرقة الأرقاء الطغاة زمام الأمر في مصر"^(٤)، أما علماء الحملة الفرنسية فأروا أنهم "توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف وسحقه تحت وطأة اسمهم: المماليك"^(٥).

ولكن هل كان المماليك كلهم قساة، غادرين، جهلة؟ وهل كانت عهودهم كلها، وأيامهم عهود ظلم، واستبداد، وفوضى؟ الحقيقة أننا نجد من المماليك من لم يكن

(١) وصف مصر، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) فولني. المصدر السابق، ص ١١٢، ١١٦.

(٣) عجائب الآثار، ج ١، ص ٣١٢.

(٤) فولني. المصدر السابق، ص ٧٤.

(٥) وصف مصر، ج ١، ص ٣٥.

قاسياً ولا غادراً ولا جاهلاً، كما نجد من عهودهم وأيامهم عهوداً كانت بعيدة إلى مدى غير قليل من أوصاف الظلم والاستبداد والفوضى، فقد كان فيهم كغيرهم - وهذا ما يؤيده الجبرتي- البر والفاجر، وكان في أيامهم كأيام غيرهم من الناس والحكام الشر والخير^(١).

فمنهم من كان حريصاً على إحقاق الحق وإقامة العدل، فكان الأمير على بك يتتبع "المفسدين والذين يتدخلون في القضايا والدعاوى، ويتحيلون على إبطال الحقوق بأخذ الرشوات ... وعاقبهم بالضرب الشديد ... ولم يراع في ذلك أحداً ... وألزم أرباب الأدراك^(٢) ... بحفظ نواحيهم ... فأمنت السبل ... بحيث أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكباً أو ماشياً ومعه حمل الدراهم والدنانير ... ويبيت في الغيط أو البرية آمناً مطمئناً لا يرى مكروهاً أبداً"^(٣).

أما الأمير محمد أغا (ت ١٢٠٩هـ / يولييه ١٧٩٤ - يولييه ١٧٩٥م) فقد تولى الحسبة^(٤) "وسار فيها سيراً بشهامة ... واتفق أنه وزن جانباً من اللحم وجده مع من اشتراه ناقصاً وأخبره عن جزاره فذهب إليه وكملها بقطعة من جسد الجزار"^(٥). هذا وقد أقام الأمير عثمان بك ذو الفقار في بيته "دواوين لحكومات العامة وإنصاف المظلوم من الظالم، وجعل لحكومات النساء ديواناً خاصاً، ولا يجري

(١) محمود الشرقاوي. المرجع السابق، ج ٢، ص ٣، ٦.

(٢) رجال الدرك: هم الخفر في الأقاليم الذين يتولون الحراسة فيها. انظر: ليلي عبد اللطيف. مرجع سابق، ص ٤٤٧.

(٣) عجائب الآثار، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٤) المحتسب: هو المختص بمراقبة الأوزان والمقاييس والأسعار في أسواق المدينة. انظر: ليلي عبد اللطيف. مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٩٤.

أحكامه إلا على مقتضى الشريعة، ولا يقبل الرشوة ويعاقب عليها ومات كثير من الأغنياء ، فلم تطمح نفسه لشئ من أموالهم^(١).

وحرص بعضهم على القيام بأعمال البر، فقد حرص إسماعيل بك ابن إيواظ (ت ١١٣٦هـ / أكتوبر ١٧٢٣ - سبتمبر ١٧٢٤م) على إرسال غلال الحرمين الشريفين في أوانها، ويرسل الذخائر والتموين إلى الموانئ فيجعل في ميناء السويس والمويلح وينبع غلال سنة مقبلة في الشون لشحن السفن. "ولما بلغ خبر موته لأهل الحرمين حزنوا عليه وصلوا عليه صلاة الغائب عند الكعبة، وكذلك أهل المدينة صلوا عليه بين المنبر والمقام"^(٢).

أما الأمير عبد الرحمن كتحدا^(٣) (ت ١١٩٠هـ / فبراير ١٧٧٦ - فبراير ١٧٧٧م) فقد "رتب للعميان الفقراء الأكسية الصوف المسماة بالزعابيط، فيفرق عليهم جملة كثيرة من ذلك عند دخول الشتاء في كل سنة، فيأتون إلى داره أفواجا في أيام معلومة ، ويعودون مسرورين بتلك الأكسية، وكذلك المؤذنون يفرق عليهم جملة من الإحرامات الطولونية يرتدونها وقت التسبيح في ليالي الشتاء، وكذلك يفرق جملة من الحَبَرِ المحلاوي والبز الصعيدي والملايات والأخفاف والبوايج^(٤)... على النساء الفقيرات والأرامل، ويخرج عند بيته في ليالي رمضان وقت الإفطار عدداً من القصاص الكبار المملوءة بالثريد المسقى بمرق اللحم والسمن للفقراء المجتمعين، ويفرق عليهم ... هبر اللحم النضيج، فيعطى لكل فقير حصته في يده،

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢١ - ٢١٢.

(٣) كتحدا: تعني الوكيل أو النائب. انظر: أحمد السعيد سليمان. تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي

من الدخيل ٠ - دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ١٧٦.

(٤) نوع من الأحذية. انظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩.

وعندما يفرغون من الأكل يعطي لكل واحد منهم رغيفين ونصفي فضة^(١) برسم سحوره إلى غير ذلك^(٢).

وكان إبراهيم بك أبو شنب (ت ١١٣٠ هـ / ديسمبر ١٧١٧ - نوفمبر ١٧١٨م) كثير الإحسان على الشحاذين فكان يعرفهم بالواحد، فإذا أعطى واحداً منهم نصف فضة في حي الصليبية بالقاهرة ثم اتجه إلى حي الرميلة ووجد نفس الشحاذ الذي أحسن إليه في الصليبية ينبهه إلى ذلك بقوله: "قد أخذت نصيبك في الصليبية"، ولذلك عندما سافر إبراهيم بك عام ١٦٩١م على رأس جيش إلى كريت، سار في ركابه شيخ الشحاذين مع طائفته وهم يصرخون ويقولون: "الله يردك علينا يا بيبك سالم لأنك أبو الفقرا"^(٣).

وكان يوضع في بيوت الأعيان "السماط في وقتي العشاء والغداء مستطيلا في المكان الخارج، مبدولا للناس ويجلس بصدرة أمير المجلس وحوله الضيفان (الضيوف) ومن دونهم مماليكه وأتباعه، ويقف الفراشون في وسطه يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات، ولا يمتنعون في وقت الطعام من يريد الدخول... ويرون أن ذلك من المعاييب، حتى أن بعض ذوي الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدام انتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعمهم الخدم في ذلك الوقت فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير"^(٤).

(١) نصف فضة: أقل النقود الفضية قيمة ويساوي بارة. انظر: ليلي عبد اللطيف. مرجع سابق، ص ٤٤٠، ٤٥٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٩-١٠.

(٣) أحمد الدمرداش كتحذا عزبان. الدرة المصانة في أخبار الكتانة: في أخبار ما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومئة وألف؛ تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٩م، ص ١٥-١٦.

(٤) عجائب الآثار، ج ٢، ص ٣٣٩.

وكثيراً ما أوقف أمراء المماليك أوقافاً للإنفاق على الفقراء والمساكين، أو المساجد والأضرحة والكتاتيب، أو على الحرمين الشريفين وفقرائهما. وتزخر سجلات المحاكم الشرعية بالكثير من هذه الوقفيات منها: أن الأمير عثمان أغا^(١) ابن عبد الله تابع المرحوم إبراهيم أغا طائفة عزيان، قد أوقف جميع المرتب الذي قدره مائتان وخمسون عثمانياً^(٢) المقيد بدفتر متقاعد عزيان، ورصد ذلك المرتب على الدوام على قراء القرآن الكريم، والفقراء والمساكين، وجميع الخيرات^(٣).

ولكن ليس هذا الحكم عاماً لكل المماليك، بل كان بعض هؤلاء لا يفعلون ذلك فيذكر فولني أنه في عام ١٧٨٤م لم يبلغ النيل الحد المواتي فعم القحط، حتى أصبحت الشوارع مزدحمة بهياكل منهوكة القوى، فكان هؤلاء التعاء يلفظون آخر أنفاسهم وهم مستقلقون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون أنها تزخر بالحنطة والأرز، وكثيراً ما كان صراخهم يزجج المماليك فيطاردونهم بالعصي^(٤).

هذا وقد اشتهر عدد كبير من أمراء المماليك بإنشاء وترميم المؤسسات الدينية وعلى رأسهم الأمير عبد الرحمن كتحدا الذي سمي "صاحب الخيرات والعمائر في مصر والشام والروم"، فعدد المساجد التي أنشأها وجددها ثمانية عشر مسجداً، وذلك خلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر. ويذكر الجبرتي أنه لما مات "خرجوا بجنائزته في مشهد حافل حضره العلماء والأمراء

(١) أغا: تطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. انظر: أحمد السعيد سليمان. مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) عثماني: عملة عثمانية نسبة الفضة فيها تسعون في المئة. انظر: الدرة المصانة، ص ٣٣ هامش ١.

(٣) محكمة الباب العالي، سجل ٢٦١، ص ١٢٣، وثيقة ١٦٤، بتاريخ ١٨ رجب ١١٧٦ / يناير

١٧٦٣م.

(٤) فولني. المصدر السابق، ص ١٢٧.

والتجار ومؤذنو المساجد وأولاد المكاتب التي أنشأها ورتب لهم فيها الأكسية والمعالم في كل سنة". وفي الوقت نفسه يعدد الجبرتي مساوئ الأمير، والتي منها قبول الرشاوى، والتحيل على مصادرة أموال الأغنياء، فضلاً عن سلاطة اللسان^(١).

وقد اهتم الأمير مراد بعمارة جامع عمرو بن العاص وكان ذلك بإرشاد الفقهاء، وصرف عليه أموالاً عظيمة، فيقول الجبرتي: "أخذها من غير حلها ووضعها في غير محلها"^(٢).

وأنشأ الأمير محمد بك أبو الذهب مدرسة تجاه الجامع الأزهر في (شعبان ١١٨٨ هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٧٧٤م)، "وكان محلها رباع متخرية فاشتراها من أربابها وهدمها وأمر ببنائها... وجعل بها خزانة كتب عظيمة... ورتب للمدرسين الكبار في كل يوم مئة وخمسين نصفاً فضة، ولمن دونهم خمسين نصفاً، وكذلك للطلبة منهم من له عشرة أنصاف في كل يوم، ومنهم من له أكثر وأقل، ويقدر عدد الدراهم أرباب من البر^(٣) في كل سنة"^(٤).

ومن السمات المهمة للمجتمع المملوكي، احترام الأمراء الشديد للعلماء، فكان الشيخ علي الصعيدي (ت ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥م) معاصراً لعلي بك ومحمد بك أبي الذهب، وكانا يحترمانه كثيراً حتى أنهما اعتادا تقبيل يديه ولا يرفضان له طلباً^(٥).

(١) عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٠ - ١١.

(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٤.

(٣) الغلة.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٥٢ - ٦٥٤.

(٥) El-Shayyal, Gamal El-Din, "Some aspects of intellectual and social life in eighteenth-century Egypt", Political and social change in modern Egypt, historical studies from the Ottoman conquest to the United Arab Republic, edited by: P.M. Holt, (London: Oxford university press, 1968) p.123

ويقول الجبرتي : إن الأمير مراد بالرغم من أنه كان " ظالماً غشوماً متهوراً مختلاً معجباً متكبراً، إلا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم وينصت لكلامهم ويقبل شفاعتهم" (١).

في حين كان الأمير يوسف الكبير (ت ١١٩١هـ / فبراير ١٧٧٧ - يناير ١٧٧٨م) متعسفاً " خصوصاً مع طائفة الفقهاء والمتعممين لأمر نقمها عليهم" (٢). ومن السمات البارزة أيضاً في المجتمع المملوكي، الغدر والخيانة، ولكن شد عن هذه القاعدة بعض الأمراء، فالأمير إسماعيل بن إيواظ كان دائم الشكوى من محمد بك جركس (ت رمضان ١١٤٢هـ / أبريل ١٧٣٠م) "وأنه جامعٌ عنده المفسد ويريدون إثارة الفتنة"، وحدث أن قبض على جركس وجيء به إلى الأمير إسماعيل أسيراً، فكساه وأكرمه، وأشار أتباع الأمير إسماعيل عليه بقتله فلم يوافق وقال: "إنه دخل إلى بيتي وحل في ذمامي فلا يصح أن أقتله" (٣).

هذا وقد أدى بعض الأمراء دوراً كبيراً في القضاء على المنكرات مثل ما قام به الأمير علي أغا عام (١١١٥هـ / مايو ١٧٠٣ - مايو ١٧٠٤م)، حيث هجم على "الخماير وأماكن الخطأ وغيرها" (٤). وأبطل الأمير عبد الرحمن كتحدا "خماير حارة اليهود (بالقاهرة)" (٥). ذلك في الوقت الذي كان الأمير رضوان كتحدا الجلفي (ت ١١٦٨هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٧٥٤م)، "يتجاهر بالمعاصي والراح" (٦) والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع

(١) عجائب الآثار، ج ٥، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥.

(٤) الدرة المصانة، ص ٦٨.

(٥) عجائب الآثار، ج ٣، ص ٦.

(٦) الخمر.

أولاد البلد وخرجوا عن الحد في تلك الأيام ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس في أفاعيلهم"^(١).

الحياة الثقافية للمماليك :

اتسمت الحياة الثقافية للمماليك بسمتين محددتين، الأولى مشاركتهم في المجالس أو "الصالونات الأدبية"، والثانية نزعتهم إلى اقتناء المكتبات الخاصة^(٢). فيروي الجبرتي أن الأمراء أقاموا أمسيات ثقافية في بيوتهم مثل رضوان كتحدا الجلفي، حيث "قصده الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح، وأعطاهم الجوائز... وداعب بعضهم بعضاً فكان يغري هذا بهذا ويضحك منهم ويأسطهم واتخذ له جلساء وندماء منهم"^(٣). وقد كتب الشاعر مصطفى أسعد اللقيمي (ت ١١٧٣هـ / أغسطس ١٧٥٩ - أغسطس ١٧٦٠م) يصف قصراً نمقه الأمير بالقاهرة وهو المعروف بقصر الحلّى فقال:

قصر له ببديع الحكم إتقان قد قام منه على الإبداع برهان
قصر تقاصر عنه قصر ذي يزن فما السديروما أنشأه نعمان
قصر تسامى فإن شاهدت منظره فأرخنه حلا مزهيه رضوان^(٤)

وتحدث الجبرتي عن اقتناء أمراء المماليك للمكتبات، فذكر أن "مجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة... وانتفاع الطلبة... يشترونها بأغلى ثمن

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٢) Hanna, Nelly, "Cultural life in Mamluk households (late Ottoman period)", The Mamluks in Egyptian politics and society, edited by: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, (Cambridge university press, 1998) p.197

(٣) عجائب الآثار، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٦.

ويضعونها على الرفرف (الرفوف) والخزائن ... فكل من دخل بيتهم من أهل العلم بقصد الإعارة أو المراجعة وجد بغيته ... في أي علم كان من العلوم ... ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فإن رده في مكانه رده، وإن لم يرده ... لا يُسأل عنه، وربما ... اشتروا (نفس الكتاب) مرارا ويعتذرون عن الجاني بضرورة الاحتياج^(١).

والحقيقة أنه ليس كل من يملك تلك المكتبات من أمراء الممالك يقتنيها لمجرد الأبهة أو الشهرة، فلقد تحدث الجبرتي عن أمراء على درجة كبيرة من العلم والثقافة فتحدث عن الأمير إبراهيم كتحدا البركاوي (ت ١١٩٨ هـ / نوفمبر ١٧٨٣ - نوفمبر ١٧٨٤م)، فقال عنه إنه "قرأ القرآن في صغره وجود الخط وحُب إليه العلم وأهله ... واشترى الممالك ودربهم في الآداب والقراءة وتجويد الخط ... واقتنى كتباً كثيرة جدا في كل فن وعلم حتى إن الكتاب المعلوم إذا احتيج إليه لا يوجد إلا عنده"^(٢).

في حين كان الأمير يحيى كاشف الكبير (ت ١٢١٥ هـ / ١٨٠١م)، كان "يحب الرسومات والنقوش والتصاوير والأشكال ودقائق الصناعات والكتب المشتملة على ذلك مثل كيلة ودمنة، والنوادر والأمثال"، بل إنه اهتم ببناء سبيل مجاور لداره فرسم شكله قبل الشروع فيه في قرطاس^(٣). بينما كان الأمير سليمان بك الأرمني بارم ذيله (ت ١٢٣٠ هـ / ديسمبر ١٧١٧ - نوفمبر ١٧١٨م) بارعاً في ارتجال الشعر^(٤).

والحقيقة أن هناك أمراً جديراً بالملاحظة، ويوضح إلى أي مدى كانت المكتبات مهمة جداً لبعض الأمراء، ألا وهو نصيب تلك المكتبات من الدخل الكلي للبيت المملوكي، فعلى سبيل المثال امتلك الأمير أحمد بك مير لواء عام ١٢٣٧ هـ /

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨١.

(٤) Hanna, Nelly. op. cit., p.201.

١٧٢٤م كتباً تساوي ٣٧,٧٨٣ نصفاً، بينما كان دخل بيته ١٨٨, ١٠١ نصفاً، بمعنى آخر أكثر من ثلث أموال بيته^(١).

اتسام المجتمع المملوكي بالأبهة والثراء :

عاش المماليك طبقة متميزة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع، فقد تميزت بمستوى اقتصادي مرتفع الأمر الذي انعكس على جوانب حياتهم وتفصح عنه أزيائهم وتدل عليه قصورهم وحاشيتهم^(٢).

فقد أكد أحد الكتبة الأقباط الذين يعملون لدى مراد بك أن سيده يمتلك أربعة آلاف قرية مزروعة^(٣)، ولكن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير إذا ما قورن بعدد قرى مصر آنذاك والذي بلغ طبقاً لتعداد علماء الحملة الفرنسية ٣٦٠٠ قرية^(٤).

وحين هرب علي بك بعد أن خذله أنصاره إلى الشام، أخذ معه من الأموال ثمانمائة ألف محبوب^(٥) ذهباً يحملها على خمسة وعشرين جملاً، ونقل أيضاً معه من المصوغ والحلي ما قدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب^(٦).

المظهر :

اهتم المماليك اهتماماً شديداً بالأسلحة المزينة، فسلاحهم الأول قرابينة إنجليزية تطلق عشر رصاصات في وقت واحد، ويحملون في وسطهم المسدسات، ومن حمالة في

(١) Ibid,p.198.

(٢) حكمت أبو زيد . المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صورته الجبرتي . عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث؛ إشراف أحمد عزت عبد الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص ٣٤٤.

(٣) إلهام ذهني. مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٤) وصف مصر، ج ١، ص ١٩.

(٥) محبوب: يساوي ١٨٠ فضة. انظر: ليلى عبد اللطيف. مرجع سابق، ص ٤٥٥.

(٦) أنور زقلمة. المماليك في مصر - مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م، ص ١٧٥.

جانبهم الأيمن يتدلى سيف معقوف قلما يوجد له نظير في أوروبا آنذاك، ويجلب المملوك العادي السيوف من الآستانة وأوروبا، أما البكوات فيتنافسون للحصول على السيوف من المصانع القديمة في دمشق، حيث يبلغ ثمن السيف الواحد أربعين أو خمسين ليرة فرنسية ذهباً^(١)، وقد أنفق علي بك خمسة وعشرين ألف ليرة ثمناً لقبضة خنجر^(٢). ويظفر المملوك بأكثر مما يظفر به جندي على مدى التاريخ، فكانت تكاليف المملوك الواحد لا تنقص عن ألفين وخمسمائة ليرة وقد يتكلف بعضهم ضعفي هذه القيمة، فكلما حل رمضان جيئ بأثواب جدد من أجواخ فرنسا وأنسجة البندقية وأقمشة دمشق أو الهند، وكثيراً ما تستبدل الجياد والأسرجة والغدرات والسيوف والرُكَب المذهبة واللجومات المفضضة. أما كبار الممالك فيُخصون بالحلي الحجارة الكريمة والجياد العربية (ثمن الواحد يتراوح بين مائتين وثلاثمائة ليرة فرنسية)، وفروات عديدة أبخسها ثمنها يساوي خمسمائة ليرة^(٣).

المسكن :

فضلت النخبة الحاكمة العزلة عن الرعية، حيث كانت بحاجة إلى مساحات واسعة لإقامة مقار إقامة رحبة، حيث كانت الأنشطة الاقتصادية في القاهرة عامل طرد للأرستقراطية. فقد أبدى الألفي نفوراً تجاه المدينة وسكانها، إذ كان يعاف المرور وسط الأسواق كي لا يتيح الفرصة لأصحاب الحوانيت والمارة أن يتفرجوا عليه^(٤). فتجمعت الأرستقراطية الحاكمة في ضاحية جنوب القاهرة حول القلعة، حيث كان

(١) فولني. المصدر السابق، ص ١١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٤) أندريه ريمون. فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية؛ ترجمة زهير الشايب - مكتبة مدبولي، د.ت، ص ٢٠٤.

يوجد مركز السلطة، وحول بركة الفيل^(١) التي كانت تفيض خلال فيضان النيل^(٢)، كما كانت الجيزة مكاناً مفضلاً للاصطياف بسبب هدوئها وعزلتها وجمال مناظرها الريفية، فقد شيد الأمير إسماعيل بك الكبير (ت رجب ١٢٠٥هـ/ مارس ١٧٩١م) مقصورة فيها^(٣). وفي أوائل القرن الثامن عشر تحول عدد من الأمراء إلى بركة الأزبكية الأنيقة^(٤)، ومنذ ذلك الوقت، وجدت ليالي الأزبكية التي ألهمت الكتاب والشعراء، فذكر الجبرتي أن بركة الأزبكية اشتهرت "بالدور والمباني العظيمة والقصور" المطلة عليها وقد كانت "مغنى صبايات" و"مواطن أنس ونزاهات"^(٥).

وقال فيها الشيخ حسن العطار (ت ١٨٣٥م):

بالأزبكية طابت لي مسرات ولذي من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات^(٦)

(١) كانت تقع فيما بين مصر الفسطاط والقاهرة، وكانت تعتبر من ظواهر مدينة القاهرة. انظر: محمد الششتاوي. متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني - دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م، ص ١٠٥.

(٢) أندريه ريمون، المصريون والفرنسيون في القاهرة (١٧٩٨ - ١٨٠١)؛ ترجمة بشير السباعي، الطبعة الأولى، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م، ص ٧٥.

(٣) أندريه ريمون. القاهرة: تاريخ حاضرة؛ ترجمة: لطيف فرج - ط ١ - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص ٢٤٩.

(٤) Raymond, Andr, The Residential districts of Cairo's Elite in the Mamluk and Ottoman periods (fourteenth to eighteenth centuries), The Mamluks in Egyptian politics and society, edited by: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, (Cambridge university press, 1998) p.222

ويمثل موضعها الآن حديقة الأزبكية وما حولها. انظر: الششتاوي. مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٥) عجائب الآثار، ج ٥، ص ١٦٢.

(٦) إنشاء العالم العلامة الحبر الفهامة حسن العطار، الطبعة السادسة، (المطبعة الكاستلية، ١٢٩٧ / ١٨٧٩ - ١٨٨٠م) ص ٤٥.

سكن أمراء الممالك في أجمل الأبنية وأغلاها ثمناً، فقد بنى الأمير عبد الرحمن كتحدا قصرأ عام ١١٦٦هـ / ١٧٥٢م يشغل مساحة قدرها فدانان ونصف أي ١٠,٥٠٠ متر مربع وكانت تكلفة بنائه مرتبطة بضخامة مساحته، إذ دفع الأمير ١,٦٠٠,٠٠٠ بارة لبنائه^(١). ويعطينا الجبرتي مثالا طريفاً للتكاليف الباهظة لبناء قصور أمراء الممالك، فذكر أن الأمير يوسف الكبير "كان يبني الجهة (من الدار) حتى يتمها بعد تبليطها وترخيمها بالرخام الدقي الخردة المحكم الصنعة والسقوف والأخشاب والرواشن"^(٢) والخرط والأدهان، ثم يوسوس له شيطانه فيهدمها إلى آخرها ويبنيها ثانيا على وضع آخر وهكذا كان دأبه"^(٣).

واهتم بعض الأمراء بإنشاء البساتين التي أسهب الجبرتي في وصف غرابتها وعجبها، كما هو الحال في البستان الذي أنشأه الأمير قاسم بك أبو سيف (ت ذي القعدة ١٢١٦هـ / مارس ١٨٠٢م) الذي "يسرح فيه النظر من سائر جهاته وتشرح النفوس في أرجائه وساحاته"، وقد ذكر الأمير للجبرتي "أنه أنشأ بستاناً بناحية قبلي أعجب وأغرب من ذلك"^(٤).

وقد أثرى المعمارين بلزك Balza وبروتان Protain كتاب وصف مصر برسوم تمثل قصور أمراء الممالك وتعطي هذه المناظر انطباعاً بالاتساع والعظمة^(٥). وكانت تلك القصور وحدات شبه مستقلة ذاتياً، بمعنى أن كل ما كان المرء

(١) نللي حنا. بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر: دراسة اجتماعية معمارية؛

ترجمة حليم طوسون - العربي للنشر والتوزيع، دت، ص ٧١، ٧٥.

(٢) النوافذ.

(٣) عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٦.

(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٥) انظر: وصف مصر، ج ١٣، لوحات الدولة الحديثة (١).

يحتاجه في حياته اليومية موجود فيها: حمامات، وآبار، وطواحين، وأماكن للصلاة، بحيث يمكن الاستغناء عن الخدمات العامة، بل وحتى عن أسواق المدينة، فكان يمكن مثلاً شراء القمح بالجملة في موسم الحصاد، إذ يتوافر في القصر المكان اللازم لحفظه وذلك في الحواصل، كما كان يتم طحنه في الطاحون الذي يوجد في الكثير من القصور، وكانت توجد في بعض القصور أيضاً غرفة خاصة "قاعة عجين" لإعداد الخبز قبل خبزه في الفرن^(١).

كما كانت هذه القصور قلاعاً حقيقية بأسوار منيعة وأبواب مسلحة بالحديد، وفي أثناء الحروب الأهلية الكثيرة تحملت الحصار وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى إحضار مدفع لفتح ثغرة في جدار قصر عدوهم^(٢).

وبالإضافة إلى القصور التي كان يملكها البكوات في القاهرة، كانت لهم أيضاً بيوت ريفية للنزهة، فكان هناك قصر لإبراهيم بك على الضفة اليمنى للنيل في مواجهة جزيرة الروضة، وكان هذا القصر كبيراً جداً وجيد التهوية حتى أن السلطات العسكرية الفرنسية أنشأت فيه مستشفى يتسع لأربعمائة مريض^(٣).

كما كان لكل أمير بيت أو بيتان صغيران يحتفظ بمكانهما سراً، إذ كان يدع فيهما - في أوقات الأزمات الخطيرة - ثرواته النفيسة، تاركاً بيته الرئيس شبه خال^(٤).

وكما اهتم أمراء المماليك بقصورهم وأنفقوا عليها ببذخ شديد، فعلوا نفس الشيء بقبورهم، والتي تتضاءل أمام عمارتها عمارة المساجد والقصور، حيث تصنع العواميد وشواهد القبور من الرخام الأبيض، ورسمت نقوش المقابر بعناية وتغطيها

(١) نللي حنا . بيوت القاهرة، ص ٧٧.

(٢) Dehrain , op. cit.,p.84

(٣) Ibid,86

(٤) أندريه ريمون. فصول من التاريخ الاجتماعي، ص ١٨٩ - ١٩٠.

أوراق مذهبة مما يعطيها مشهداً بديعاً. وتعتبر تلك المقابر في الواقع مساجد صغيرة، وهي محاطة بسور ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدمها، أما السادة فيدفنون تحت القبة^(١).

الاحتفالات :

تميزت احتفالات المماليك بالبذخ الشديد والمبالغة في الفخامة لاسيما حفلات الزواج والتي تمتد أياماً طويلة. ففي عام ١١٧٤هـ / (أغسطس ١٧٦٠- أغسطس ١٧٦١م) احتفل علي بك بزواج أحد مماليكه، فأقام له حفلاً عظيماً احتفل به ببركة الفيل وأسهب الجبرتي في وصف ذلك العرس فمما ذكره: "وكان ذلك في أيام النيل فعملوا على معظم البركة أخشاباً مركبة على وجه الماء يمشي عليها الناس للفرجة واجتمع بها أرباب الملاهي والملاعب وبهلوان الحبل... والمتفرجون والبياعون من سائر الأصناف... وعلقوا القناديل على جميع البيوت المحيطة بالبركة... وفي كل بيت منهم (منها) ولائم وعزائم وضيافات وسماعات وآلات... واستمر هذا الفرح... مدة شهر كامل والبلد مفتحة والناس تغدو وتروح ليلاً ونهاراً للحظ والفرجة... ووردت على علي بك الهدايا... من إخوانه الأمراء والأعيان... وبعد تمام الشهر زفت العروس في موكب عظيم شقوا به من وسط المدينة بأنواع الملاعب والبهلوانات والجنك والطبول... والعروس في عربة"^(٢).

وكذلك كانت حفلات الختان ينفق عليها ببذخ شديد، فقد وصف القنصل الفرنسي ميليه Mailliet عام ١٦٩٦م حفل ختان لابن أحد أمراء المماليك، فذكر أنه كان رائعاً واستمر عشرة أيام، وأجريت خلاله مسابقات للخيل والحيوانات، وتم

(١) وصف مصر، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) عجائب الآثار، ج ٢، ص ٤٠٧-٤٠٨.

إحضار الراقصين من دمشق، وتم فيه كسوة العبيد، وارتدى الصبي كسوة من القماش البندقي المطعم بالذهب وغطاء الرأس به ورود، كما بدل ملابسه أربع مرات، وتم ختان عدد كبير من العبيد في هذا الحفل، وقد أحصى ميليه عدد المصاييح التي تم إنارتها فوجد أنها تزيد على ألف مصباح^(١).

أيضاً احتفل المماليك بالمناسبات الدينية، فكان يتم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في الأزيكية، حيث يقيم بعض الأمراء الولائم مثلما فعل مراد بك عام ١٢٠٦هـ (أكتوبر- نوفمبر ١٧٩١م)^(٢).

وفي أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء، كانوا "يطبخون... الأرز باللبن... ويملأون من ذلك قصاعاً كثيرة ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيفرون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن... ويعطونهم بعد ذلك دراهم... وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على المدافن... في الجمع والمواسم"^(٣).

وحرص أمراء المماليك على المشاركة في الحفلات الرسمية كتعيين الولاة الجدد فكانوا يقيمون المآدب والولائم^(٤).

ومما يجدر ذكره أنه كانت توجد في بيوت بعض البكوات فرقة موسيقية، وكان البك ينزل مهرجه نفس المنزلة التي ينزلها لطبيبه. وهنا كان البكوات يقلدون الباشوات الأتراك. وكان مهرج مراد بك يدعى قاسم مسالي، وفي أحد الأيام أراد

(١) إلهام ذهني، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

(٢) عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٤٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٤) إلهام ذهني، مرجع سابق، ص ٣١٨.

مراد بك أن يسخر من قنصل فرنسا ماجالون Magallon ، فأمر هذا المهرج أن يستقبل مترجم القنصلية الذي جاء لبحث معه شخصياً مسألة مهمة^(١). وعلى أية حال فكما لكل قاعدة شواذ، فلم يكن جميع أمراء الممالك على قدر كبير من الثراء، فكان بعضهم عكس ذلك تماماً مثل الأمير حسين بك المعروف بأبي يدك (ت ١١٣١هـ / نوفمبر ١٧١٨ - نوفمبر ١٧١٩م) "كان قليل المال"^(٢).

المرأة في المجتمع المملوكي :

عاشت نساء الممالك حياة ترفل بالثراء والأبهة والرفاهية، تحيط بها جمهرة من الإماء شديداً الانتباه، إلى حد يتنبأ، معه بما قد يجول في إرادتها حتى يوفرن عليها حركة الإشارة من إصبعها^(٣).

وقد كانت الأزياء والملابس من أبرز مظاهر الثراء لنساء الممالك، فقد صنعت هذه الأزياء من الأقمشة الفاخرة وطرزت بخيوط الذهب والفضة، كما استخدم معها الأحجار الكريمة، كما ازدانت الأحذية بالمجوهرات وطرزت بالسلوك الذهبية والفضية^(٤). حتى أن ميليه ذكر إن تكاليف ملابسهن تفوق ملابس المرأة في فرنسا ثلاث مرات أو أكثر^(٥). ولا يظهرن إلا وقد وضعن حول جيدهن القلائد والعقود ذات الأشكال والأطوال المختلفة، وتدلّ من آذانهن أقراط الماس المتوهجة وأثقلت أذرعهن بالكثير من أشكال الأساور، وطوقت أذرعهن من أعلى بعصادة عريضة مزينة بالفصوص وحلت أصابعهن العشر بالخواتم ذات الفصوص المختلفة^(٦).

(١) Dehrain , op. cit.,p.83

(٢) عجائب الآثار، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) وصف مصر، ج ١، ص ٥٤.

(٤) آمال المصري. أزياء المرأة في العصر العثماني - دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م ص ٤٩.

(٥) إلهام ذهني . مرجع سابق، ص ٢٨٦.

(٦) وصف مصر، ج ١، ص ١٠١.

كما زين شعرهن المصفف في عدد كبير من الضفائر، بالماسات والمجوهرات والحلي والنقود الذهبية^(١).

كما اهتمن باستخدام أنواع الزينة المختلفة من مساحيق وألوان، واقتنت كل سيدة زوجاً من المكاحل، التي صنعت من الذهب الخالص المرصع بالأحجار^(٢).

وتعشقن في أنواع الطيب وأسرفن في استخدامه، فكانت القصور تعبق بشذى عطور النساء، وكانت مواكبهن تعبق بطيب ريحها الطرقات قبل رؤية الموكب، وكان يرش العطر وماء الورد على العروس وعلى رفيقاتها في أثناء الزفاف وهن يسرن في الموكب^(٣).

أما قاعاتهن الخاصة فقد تألفت بالذهب واللازورد، وزينت بالسجاد العجمي والطنافس الموشاة بالذهب والفضة، وكسيت الأسقف والجدران بالكثير من اللوحات الفنية^(٤).

ويخصص لجناح السيدات الجزء العلوي من المنزل، ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقاً لرجل بخلاف الطبيب أو الكاتب^(٥). والطبيب ليس بإمكانه أن يرى مريضاته إلا في حضرة الإماء، بل إن النساء - حتى في هذه الحالة - لا يخلعن نقابهن. أما الكاتب فلا يدخل مطلقاً الحجرة التي تشغلها سيدته فيبقى في الحجرة المجاورة ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ويكتب هو حسب الأوامر التي تملى عليه بواسطة المباشرة^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٢) آمال المصري. مرجع سابق، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٤) Dehrain , op. cit., p.85

(٥) بمثابة موظف سكرتارية تستخدمه عادة نساء الطبقة العليا. انظر: وصف مصر، ج ١، ص ١٠٧.

(٦) أو الوكيله: وهى سيدة تعمل في خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الإماء. انظر: المصدر السابق.

وعندما يصعد الزوج إلى حجرة زوجته، فإنه يعلن ذلك مسبقاً، ولا يظهر مطلقاً إذا كان مع الحريم غريبات. وتراعي الزوجة أن تبعد عن ناظره الإماء اللاتي يمكن لجمالهن أن يغويه، ومع ذلك، فإنه إذا ما لمح واحدة منهن ونالت إعجابه وأبدى الرغبة في أن يبقى وحده معها، فإن زوجته تبدي الكثير من التلطف لحد تتسحب معه من الحجرة، فلكي تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة على أزواجهن فإنهن يقدمن لهم توضيحات من هذا النوع، مثلما كانت تفعل زوجة مراد بك. وإذا ما كانت الزوجة مدققة في مثل هذه الأمور، فإن الزوج لا يجزؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء. ويقال إن إبراهيم بك، قد ضبطته زوجته ذات يوم مع واحدة من إماءها فضربته بقسوة وهى تصب عليه شتائمها، ويقال إنها كانت تأمر بإغراق - أو دس السم - لأي واحدة من إماءها تشك في أن لها علاقة بزوجها^(١).

تلقب المرأة بست أو هانم أو باسم ابنها، وكانت تربية الأطفال هى واجبهن الأول^(٢). وكان لنساء الممالك عادات خاطئة في تربية الأطفال أدت إلى ارتفاع نسبة وفيات أطفالهن، حيث حرصن على تنشئة أولادهن في مكان مغلق لا يجدد فيه الهواء، ولا يحصل الطفل على تغذية سوى اللبن، كما حرصن على أن يرتدي الأطفال ملابس ثقيلة في الصيف، فذبلت صحتهم وعلت الصفرة وجوههم؛ لأنهم يعيشون في أجواء مغلقة غير صحية^(٣).

كانت نساء الممالك تخرج للتنزه تحت حراسة الخصيان، فيخرجن للتنزه على شاطئ النيل، حيث تحتوي عواماتهن على غرف جميلة، طليت بألوان رائعة

(١) وصف مصر، ج ١، ص ١١١-١١٢.

(٢) Savary, M., Lettres sur L'gypte , seconde edition, tome 1, (Paris,1786), p.158

(٣) إلهام ذهني، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

وتتسم بالزخرفة الشديدة، وغطيت نوافذها بالمشربيات التي ينبعث من خلالها أصوات الموسيقى. كما كن يتزهن تحت ظلال أشجار البرتقال، كما تبادلن الزيارات فيما بينهن^(١).

وفي المناسبات كن يخرجن للتزه، فقد ذكر الجبرتي أنه "في أول الخماسين الواقع في شهر رجب ١١٣٥ هـ (أبريل - مايو ١٧٢٣م) طلع الناس ... لاستنشاق النسيم... إلى ناحية الأزبكية... وجميع من كان هناك من النساء الأكابر" وكانت بصحبتهن آمنة الجنكية^(٢).

وعندما لا يستطعن الخروج، كن يصعدن عند غروب الشمس إلى السطح ويستنشقن الهواء بين الأزهار التي يُحتفظ بها في هذا المكان بعناية، وعادة ما يستحمن هناك أيضاً، فيستمتعن في وقت واحد ببرودة الماء وأريج النباتات العطرية والهواء النقي وبمنظر آلاف النجوم التي تلمع في السماء. أو أن يقمن بتطريز الفساتين^(٣)، أو يستمعن إلى المغنيات كما يحدث في ليالي رمضان^(٤).
كان قليل من نساء الممالك من يعرفن القراءة والكتابة^(٥)، وقد استخدم البعض شيوخة لتزور الحريم يوماً فتعلم بناتهن وجواريهن إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن الكريم^(٦).

(١) Savary, op. cit. pp. 170- 171

(٢) أي التي تضرب على العود. انظر: عجائب الآثار، ج ١، ص ١٠٨.

(٣) Savary, op. cit. pp. 170- 171

(٤) وصف مصر، ج ١، ص ١٨٠.

(٥) عجائب الآثار، ج ٦، ص ٤٦٤.

(٦) صلاح أحمد هريدي. التعليم في مصر في القرن الثامن عشر - دار المعرفة الجامعية،

١٩٨٩م، ص ٥٥.

لم يكن دور النساء مقصوراً على الحريم والتتزه والزيارات، بل كان لبعضهن دور مؤثر في المجتمع المملوكي. فعلى سبيل المثال: كانت الست نفيسة زوجة علي بك، ثم زوجة مراد بك - وهذا هو السر في اشتهاها باسم "نفيسة المرادية" - أعظم شخصية ظهرت بين سيدات مصر آنذاك، فقد اكتسبت احترام الممالك فلقت "أم الممالك"، وكانوا يتشرفون بزيارتها كلما تولوا منصباً من المناصب لتزودهم بالنصائح قائلة: "إياكم واغتصاب حقوق الشعب، فإن زوجي (علي بك) كان دائماً يرهاها حق رعايتها"^(١). وقال عنها الجبرتي: "فإنها كانت من الخيرات، ولها على الفقراء بر وإحسان"^(٢). ولما دخل الفرنسيون القاهرة، لم تفر مع زوجها مراد بك إلى الصعيد، وبقيت في قصرها باسطة حمايتها على كثير من نساء الممالك المنكوبين، من ذلك أنه لجأت إليها زوجة أحد الممالك وذكرت أنه كان بمنزلها حوائج كوديعة لامرأة زوجة لمملوك آخر، وأن البيت قد وضع الفرنسيون يدهم عليه، "فشفعت الست نفيسة في تعلقات امرأة المملوك عند ساري العسكر بليار فقبل شفاعتها"^(٣)، ودفعت كثيراً من المغارم التي فرضها الفرنسيون على المصريين ولم يستطع كثيرون منهم دفعها^(٤). ومن السيدات اللاتي ذاع صيتهن، هانم بنت إيواظ، والتي تأمرت ضد محمد بك جركس انتقاماً لمقتل أخيها إسماعيل بن إيواظ، وذلك بتقديم مبالغ ضخمة من

(١) محمد رفعت رمضان. علي بك الكبير - دار الفكر العربي، دت، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٠٩.

(٢) عجائب الآثار، ج ٨، ص ٤١٠.

(٣) إسماعيل بن سعد الخشاب. التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقائع الديوان (١٨٠٠ -

١٨٠١)؛ تحقيق وتحليل وتعليق محمد عفيفي وأندريه ريمون؛ تقديم جون فرانسو كليمنت ، مع

نبذة لماي جينيبيان جيدون - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٣ م ، ص ٢٦.

(٤) محمود الشرقاوي. مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثاني - ط ٢ - مكتبة الأنجلو،

١٩٥٧ م، ص ١٦٨.

المال، ٥٠٠ كيس^(١) لعصابة إسماعيل، و٣٠٠ للباب العالي^(٢) ومن الأمور ذات الدلالة أن المصادر المعاصرة أطلقت على زوجها الثاني والثالث لقب "زوج هانم" إشارة للمكانة التي يصل إليها من يتزوج هذه المرأة^(٣).

بل وأكثر من ذلك فقد سمي أحد البيوتات المملوكية وهو البيت الجلفي باسم زوجة مؤسس البيت، فاسم الجلفية مشتق من اسم زوجة الكخيا^(٤) حسن بلفية (ت ١١٢٤هـ / فبراير ١٧١٢ - يناير ١٧١٣م)، وكانت ابنة ملتزم^(٥) قرية سنجل في المنوفية، وتعرف بالست الجلفية، وعقب زواجه منها أصبح لقب الكخيا حسن نفسه هو الجلفي^(٦).

وقد كان لبعض نساء الممالك مكانة اقتصادية مميزة، حيث امتلكن ملكية ضخمة، فعلى سبيل المثال كانت ممتلكات شويكار قادن، أرملة إبراهيم كتحدا القازدغلي (ت ١٧٥٤م)، تضاهي ممتلكات أغنى تجار عصرها^(٧).

(١) يساوي الكيس خمسمائة قرش.

(٢) Winter, op. cit., p.71

(٣) Hathaway, Jane, The Politics of households in Ottoman Egypt: the rise of the Qaz dalis, (Cambridge university press, 1997) p.116

(٤) تعني الوكيل أو النائب. انظر: أحمد السعيد سليمان. مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٥) الالتزام: هو نظام يتكفل فيه من يشاء من الأمراء الممالك وغيرهم بتحصيل الضرائب المقررة على أراضي قرية أو أكثر أو أقل عن مدة معينة وذلك بناء على اتفاق بين هذا الشخص وبين الروزنامة نيابة عن الحكومة. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الريف المصري في القرن الثامن عشر - مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٤م، ص ٧٤ - ٧٥.

(٦) Hathaway, op.cit., p113

(٧) Fay, Mary Ann, " Women and waqf: toward a reconsideration of women's place in the Mamluk household", International Journal of Middle East Studies, vol. 29, no. 1, (feb.,1997) p.47.

ويعتبر وقف زينب خاتون- معتوقة الأمير إسماعيل بك الكبير، من أضخم الوقفيات لسيدة من الطبقة الراقية في القرن الثامن عشر، فقد أوقفت ملكية كبيرة شملت: ثلاث وكالات، حوش، مكان (يشتمل إما على منزل أو حانوت) في حي الناصرية^(١)، مخبز، حصة في حانوت، بيت قهوة، وثلاثة أماكن وحانوتين في حي قوصون^(٢)، مع ملاحظة أن الأماكن التي تمتلكها تقع في أرقى أحياء القاهرة^(٣).

ولم تكن تلك السيدات يملكن هذه الملكيات الضخمة فقط، بل كن يدرنها أيضاً، فالكثير من نساء المماليك قمن بأعمال التجارة، حيث اشترين وبعن كما يفعل الرجال، واستطعن حماية ثرواتهم، فذهبن إلى المحكمة من أجل ذلك. وكانت صكوك الشراء تحمل أحيانا ملاحظة أن عملية الشراء قد تمت من "مال الزوجة الخاص"، ولذلك لا يستطيع وكيلها، أو زوجها، الإدعاء بأنه شريك لها. بل وقاضت بعض النساء أزواجهن، إذا تخلفوا عن أداء الديون التي منحتها لهم الزوجات وكثيراً ما ربحت النساء تلك القضايا^(٤).

وحصلت نساء المماليك على ثرواتهم من عدة طرق: إما من خلال الإرث. أو الوقف وبالنسبة لهذا الأخير فإما أن تكون المرأة إحدى المنتفعات من أحد الأوقاف، أو أن تكون نازرة وقف حيث تشرف بذلك على كثير من الممتلكات والأموال، فضلاً

(١) وهي حي الكشاف، ومكانها اليوم المنطقة التي يخترقها شارع ستي نصره، ويحدها من الشرق شارع محمد فريد، ومن الغرب شارع مصطفى كامل، ومن الجنوب شارع درب البندق، ومن الشمال شارع الشيخ ريحان. انظر: الششتاوي. مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢) على الضفة الشرقية لبركة الفيل.

(٣) Fay, op. cit., p. 39

(٤) Lutfi Al-Sayyid Marsot, Afaf, "Marriage in late eighteenth- century Egypt", The Mamluks in Egyptian politics and society, edited by: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, (Cambridge university press, 1998) p.288

عن المرتب المخصص لهذا المنصب^(١). هذا فضلا عن الصداق الذي تحصل عليه المرأة في حالة زواجها، وتزخر سجلات المحاكم الشرعية بالأمثلة على ذلك منها: أن الأمير إبراهيم أغا أصدق خديجة بنت عبد الله البيضاء على صداق قيمته خمسة عشر ألف نصف فضة^(٢). ومن موارد الثروة أيضاً أن تكون المرأة ملتزمة^(٣).

الزواج في المجتمع المملوكي :

كان المماليك لا يرغبون في الزواج وتكوين أسرة^(٤)، فحياتهم قائمة على الصراع بين بعضهم البعض، ومن ثم يعتبر الزواج بالنسبة للمملوك نقطة ضعف، حيث يستطيع خصمه أن يقبض على الزوجة أو الأولاد ويرغمه على قبول مالا يريد، ولذا كان المملوك يعيش واضعاً رأسه على كفيّه أي حياة مغامرة، والزواج يتطلب الاستقرار.

ومع ذلك كان من المؤلف في المجتمع المملوكي زواج المماليك من داخل مجموعتهم الاجتماعية الخاصة. ونلاحظ في مجتمع المماليك أن عذرية الزوجة ليست بذات أهمية بالنسبة للزوج، وبالمثل عمرها، فالرجال تزوجوا نساءً سبق لهن الزواج بل و أكبر منهم سناً ، وذلك إما لتعزيز العلاقات بين بيتين مملوكيين، أو للاستفادة من ثرواتهم، أما العذارى فكانوا يقومون بشرائهن واقتنائهن محظيات^(٥). ومن المماليك من تزوج من مصريات، فذكر الجبرتي أن "الأمير أحمد أفندي

(١) Fay,op. cit.,p.42

(٢) محكمة الباب العالي، سجل ١٩٢، ص ١٩٥، وثيقة ٢٦٠، بتاريخ ١٦ صفر ١١٢٣هـ / أبريل ١٧١١م.

(٣) دخلت المرأة ميدان الالتزام لأول مرة عام ١١٤٤هـ / ١٧٣٢م. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن

عبد الرحيم. الريف المصري، ص ٩٥.

(٤) محمود الشرفاوي. مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٩.

(٥) Marsot,op. cit.,pp.286-287

الروزنامجي^(١) (ت ١١٠٢ / أكتوبر ١٧٨٧ - أكتوبر ١٧٨٨ م) ... وزوجته المصونة خديجة من أقارب المرحوم الوالد^(٢).

في حين كان نساء الممالك يرغبن رغبة قوية في الزواج من الممالك، فيقول الجبرتي: "نساء الممالك، يتنافسن في الزواج من الألفية (ممالك محمد بك الألفي) وكن يقدمن لهم الأكسية ويؤثثن لهم البيوت، وينفقن النفقات الكثيرة ليسرن لهم الزواج منهن، وكان ذلك يثير الغيظ في نفوس الأتراك فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ... فلا ترضى به وتعافه وتأنف قربه ... وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس الممالك أجابته في الحال"^(٣). في حين كن يقبلن الزواج من المصريين فقد "تزوج التاجر جعفر من اثنتين من المعتوقات، عائشة خاتون وفتحية خاتون"^(٤).

وتتزوج نساء الممالك في سن صغير، ويوكلن ولي أمرهن (أب، أخ، تاجر العبيد)^(٥). والشئ الجدير بالملاحظة هو ما تستطيع المرأة إدراجه من شروط في عقد الزواج، وكل ما يدرج يكون ملزماً قانونياً - طالما لا ينافي الشريعة - فتستطيع المرأة أن تشترط إذا تزوج عليها زوجها فيمكنها أن تطلقه، ومن حقها أن تشترط أن يكون زوجها ملزماً باتباع تقاليد ونزعات البيت الذي تنتمي إليه، كما يمكنها أن تحدد كيفية زيارتها لأهلها وكيفية زيارة أهلها لها^(٦).

(١) هو رئيس ديوان الروزنامة، وهو ديوان مالي يجبي الضرائب، ويتولى الإنفاق على بعض جهات البر كتشغيل الكسوة الشريفة ونفقات قلاع الحجاز. انظر: أحمد السعيد سليمان. مرجع سابق، ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٩.

(٤) Marsot, op. cit., pp.

(٥) Ibid, p. 283

(٦) Ibid, p. 288

كان من المؤلف أن يزوج زعيم البيت المملوكي ابنته أو أخته لأهم أتباعه، وهذا شبيه بما يفعله السلاطين العثمانيون، إذ كان السلطان يزوج ابنته لأحد الوزراء البارزين^(١). وأفضل مثال هو ما اعتاده علي بك من ترتيب زيجات بين ذكور بيته البارزين ونساء من البيت نفسه، ففي عام ١٧٦٦م زوج أخته لمعتوقه محمد بك أبي الذهب^(٢). وكان زعماء البيوتات المملوكية يتفاوضون في مسائل زواج مماليكهم مثلما يفعل الأب لأبنائه، وقد ساهمت تلك الزيجات في إيجاد علاقات وتحالفات بين تلك البيوتات. فلقد سحب علي بك اثنين من مماليكه، وزار خليل بك بلفية (ت ١١٨٦هـ/ أبريل ١٧٧٢ - مارس ١٧٧٣م) طالباً يد أخته لأحد المملوكين، فوافق خليل، فطلب علي بك يد أخت خليل الثانية لمملوكه الآخر، ولكن خليل رفض معللاً ذلك بعدم قدرته المادية لزواج الاثنتين في وقت واحد، فوعده علي بك بمساعدته، فوافق خليل على الزيجتين^(٣). وهنا تتضح تلك العلاقة الحميمة بين البك ومماليكه لدرجة أنه مستعد لتمويل زواجهم من جيبه الخاص.

وبالرغم من الامتيازات التي يهيئها للمماليك وجودهم بالقرب من البكوات، لم يكونوا ليتمتعوا بأي حق في ميراثهم الذي يوزع على أبنائهم الشرعيين، صحيح أنه كان بمقدور السيد أن يخصص جزءاً من ثروته لصالح المملوك، إلا أنه لم يكن يبلغ أكثر من ثلث الثروة، وعلى العكس من ذلك، فإن مات المعتوق دون ذرية، فإن ثروته كلها تؤول إلى سيده القديم^(٤).

الخاتمة :

نخلص من هذه الدراسة إلى أن مجيء المماليك إلى مصر كان تجربة فريدة، كما

(١) Hathaway, op. cit., p110

(٢) Ibid, p. 113

(٣) Marsot, op. cit., pp. 283-284

(٤) وصف مصر، ج ١، ص ٢١٠.

سبق القول، إذ استطاعت تلك الفئة القليلة العدد أن تحكم مصر وأن يتقبل المصريون حكمها نظراً لأن هذا العصر كان يسود فيه النزعة الدينية الإسلامية فالمحكومون لا ينظرون إلى الحاكم من الناحية الجنسية ولكن ينظرون إليه كحاكم مسلم أيًا كانت جنسيته. وقد وجد هؤلاء الممالك في مصر الموطن الأصلي لهم فكانوا يحرصون على حماية البلاد والدفاع عنها كمصريين إذ لم يكن لهم غير مصر ملجأ وملأ.

وقد وجدت السمات التي تميز بها الممالك صداها لدى الأثرياء من المصريين، تصديقاً لقول ابن خلدون بأن المغلوبين مغرمون بتقليد الغالب، وتجلّى ذلك في المظهر والسكن والاحتفالات. هذا وقد أدرك الممالك أهمية التقرب من العلماء تلك الفئة التي كانت تحظى بتقدير واحترام كبيرين من قبل الشعب المصري لاسيما وأنهم كانوا المدافعين عن الأهالي إزاء طغيان بعض الممالك.

وقد وجدت الناحية الثقافية اهتماماً من كبار الممالك إذ حرصوا على اقتناء نفائس الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة التي وضعت في خدمة طلاب العلم. كما كانت قصور بعضهم تزخر بمجالس العلم والأدب التي تزدان بالشعراء والأدباء، تلك المجالس التي كانت البداية للتطور الذي حدث في القرن العشرين فيما سمي بالصالونات الأدبية. وإذا انتقلنا إلى جانب المرأة نجد أن المرأة المملوكية تمتعت باحترام وتقدير كبيرين حيث أدت دوراً فعالاً في الحياة السياسية والاقتصادية إلى جانب دورها الكبير في الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت. وظهرت شخصيات نسائية كان لها قدرها ومكانتها وحظيت باحترام وتبجيل من قبل الممالك خاصة والمصريين عامة. كما كانت المصاهرات وسيلة سياسية واجتماعية لربط البيوتات المملوكية بعضها ببعض بهدف أن يحل الوثام بينها بدلاً من التنافس والصراعات.

تلك هي أهم النتائج التي يمكن أن نخرج بها من هذه الدراسة.

والله ولي التوفيق.